

الدراسة الواقعية في تحديد الهوية التاريخية الجغرافية للمدن الجزائرية: تلمسان أنموذجا

أ.سليمة يحيى أوي جامعة: أبي بكر بلقايد - تلمسان

المحور: المدينة الجزائرية و الهوية

المستخلص:

بين التاريخ والجغرافيا علاقة رحم وانتساب، فلا ريب أن تاريخ الشعوب إنما يجري في الأقاليم الجغرافية التي تسكنها وتعمرها، بل لعل هناك من يرى أن تاريخ الشعوب يوجد مكتوباً في خطوطه الأساسية في جغرافيا بلادهم.

والدراسات التاريخية والجغرافية أصبحت تولي أهمية خاصة لعلم الأعلام الجغرافية، الذي يعتبر من العلوم المساعدة وروافد البحث العلمي وإعادة بناء وتركيب عناصر الهوية الحضارية والثقافية لمختلف المجالات الجغرافية وتفاعلاتها التاريخية وعلاقتها المتعددة.

يحمل مفهوم "المواقعية" أو "علم المواقعية" أو "علم الأعلام الجغرافية" أو "الطوبونيميا" (La Toponymie) أو "الأماكنية" - كما ترجمها البعض - دلالات عديدة تهتم في غايتها بالبحث في أسماء الأماكن، ومحاولة تفسير ظهورها وضمحلها داخل مجالها الجغرافي والتاريخي وتطور دلالاتها، ويلمس ما يطرأ عليها من تغيير ومحو وتشويه بفعل الطبيعة أو بفعل الإنسان.

و على هذا الأساس تعتبر أهمية الإحاطة بدلالات أسماء الأماكن من أهم معالم الهوية الوطنية، ومن عناصر سبر أغوار التاريخ والبحث عن الحلقات المفقودة في مساره الحافل، والتي تشكل مساحات بيضاء ما زالت في حاجة إلى مزيد من الدراسة.

و لأجل التحقق من هدف البحث تطلب العمل فيه التطرق إلى:

أولاً: علماً لمواقعية من حيث مفهومها وأصنافها والعلوم التي تعتمد عليها الدراسة المواقعية.

ثانياً: لمحة عن تلمسان من حيث الموقع والجغرافيا والتاريخ.

ثالثاً: تأصيل أسماء الأماكن في تلمسان، العربية منها والبربرية والفرنسية، والتي لها علاقة بجغرافيا المكان أو تاريخه.

و أنهيت بحثي المتواضع بخاتمة ضمنيتها أهم النتائج التي خلص إليها.
رغم أن علم الواقعية لا يزال في بداية التأسيس، و أنه لم يلق اهتمام الباحثين فإنه يبقى مهملى كل المجتمعات والشعوب التي تبحث عن ذاتها، باعتباره عنصرا من العناصر المساعدة على استعادة ذاكرتها الجماعية وإعادة تركيب مكونات هويتها الثقافية.

الكلمات المفتاحية:

تلمسان ، علم الواقعية، الهوية التاريخية ، الهوية الجغرافية، المدن الجزائرية

مقدمة:

بين التاريخ والجغرافيا علاقة رحم وانتساب، فلا ريب أن تاريخ الشعوب إنما يجري في الأقاليم الجغرافية التي تسكنها وتعمرها، بل لعل هناك من يرى أن تاريخ الشعوب يوجد مكتوبا في خطوطه الأساسية في جغرافيا بلادهم.

و الدراسات التاريخية والجغرافية أصبحت تولي أهمية خاصة لعلم الأعلام الجغرافية، الذي يعتبر من العلوم المساعدة وروافد البحث العلمي وإعادة بناء وتركيب عناصر الهوية الحضارية والثقافية لمختلف المجالات الجغرافية وتفاعلاتها التاريخية وعلاقتها المتعددة.

و تلمسان واحدة من أعرق المدن الجزائرية، ضاربة جذورها في التاريخ، حتى قال بعض واصفيها أنها أزلية، و قد عرفت بعدة ألقاب، فهي: مدينة الجدار، جوهرة المغرب، غرناطة إفريقيا، مدينة حب الملوك، مهد التاريخ و الحضارة، كما جادت قريحة الأدباء و الشعراء الذين حلوا بها فنظموا فيها أشعارا و حلوها بأفخم عبارات الحسن والجمال¹.

و من دلائل قدمها أن مواقيعيتها عرفت عبر تاريخها السحيق بعدة أسماء، لاتينية وبربرية و عربية و فرنسية، فما هي العوامل التي جعلتها تفوز عن غيرها من المدن بهذه الريادة؟ و ما سبب ثراء هذه الواقعية؟ و على أي أساس كانت تمنح هذه الأسماء؟ وهل يوجد لعلم الواقعية أهمية وارتباط قوي بهويتنا وتاريخنا ووطننا؟

في بحثي المتواضع و الموسوم ب: الدراسة الواقعية في تحديد الهوية التاريخية للمدن الجزائرية - تلمسان أنموذجا، و للوصول إلى هدفه المنشود، تطلب العمل فيه التطرق إلى:

¹ - براهيم نصر الدين: تلمسان الذاكرة - منشورات ثالة - الأبيار - الجزائر - ط2 - 2010 - ص09.

أولاً: علم المواقع من حيث مفهومها و أصنافها و العلوم التي تعتمد عليها الدراسة الواقعية.

ثانياً: نشأة مدينة تلمسان و تطورها التاريخي.

ثالثاً: تأصيل أسماء الأماكن في تلمسان، العربية منها و الفرنسية، و التي لها علاقة طبعاً بتاريخ المكان.

و أنهيت بحثي المتواضع بخاتمة تضمنتها أهم النتائج التي خلص إليها، مع بعض التوصيات.

أولاً: لمحة عن علم المواقع (الطوبونيميا)

لطالما كانت المواقع الواقعية محل اهتمام الكثير من العلماء منذ القدم، لأنه غالباً ما كان يشك في تأويلها، و لم تكسب صفة العلم إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر(19)، فقد باشرت فرنسا في الموضوع حيث أسست في العام سبعين و ثمانمائة وألف (1870) مشروع وضع قواميس خرائطية لكل مقاطعة، و لكنه لم ينجح إلا بالنسبة لثلاثين (30) مقاطعة، إلى أن أصدر أوغيسست لونيون (Auguste Longon) الذي يعد المؤسس الأول للمواقع المنظمة و المنسقة، كتابه "أسماء أماكن فرنسا" الذي ظهر في سنة عشرين و تسعمائة و ألف (1920)، و من ثم قام الباحثون من بعده بتطوير أعماله أمثال: ألبرت دوزا (Albet Dauzat)، و شارل روستانغ (Charles Rostaing)، كما يواصل حالياً العديد من المتخصصين التعمق في أبحاث علم المواقع¹.

أما في الجزائر فلم تظهر هذه الدراسة إلا في منتصف القرن العشرين، و سجلت فقراً كبيراً، و لم يباشر أحد في دراسة إجمالية للمواقع²، لكن رغم هذا لا ننكر جهود بعض الجهات و مراكز البحث في هذا المجال.

1- **مفهوم الطوبونيميا وأهميتها:** تعرف معاجم اللغة الاسم بأنه لفظ يطلق على شيءٍ لتعيينه و تمييزه عن غيره، و من ذلك أن للأماكن أسماء تعرف بها، و يتم التعامل معها بعلم أسماء الأماكن (name-place) أو علم الأسماء الجغرافية (toponymy)³.

² - هدية سارة: مواقع منطقة تلمسان، دراسة لنماذج من بلدياتها - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم اللهجات - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية - قسم الثقافة الشعبية - 2008/2007 - ص2

² - المرجع نفسه - الصفحة نفسها

¹ - الهندسة أمل أحمد الحسيني: الأسماء الدخيلة على اللغة العربية - المؤتمر العربي الرابع للأسماء الجغرافية في بيروت - 22/16 حزيران 2008م

الطوبونيميا (La Toponymie) هو مصطلح إغريقي مركب من لفظين (طبو= topos) وتعني مكان و (أونوما= onuma) وتعني اسم¹ أي (اسم المكان)، ويترجم هذا العلم في اللغة العربية إلى "المواقعية" أو "علم المواقعية" أو "علم الأعلام أو الأسماء أو التسميات الجغرافية" أو "الأماكنية".

كل هذه التسميات تحمل في مفهومها دلالات عديدة تهتم في غايتها بالبحث في أسماء الأماكن، و محاولة تفسير ظهورها و اضمحلالها داخل مجالها الجغرافي والتاريخي و تطور دلالاتها، و يلمس ما يطرأ عليها من تغيير و محو و تشويه بفعل الطبيعة أو بفعل الإنسان.

إن المواقعية هي علم لساني يخص دراسة أسماء الأماكن، حيث يهتم بدراسة معنى و أصل أسماء الأماكن كما يدرس التحولات و التطورات التي مرت بها²، فبدون التسمية يكون الإنسان مضطرا في كل مرة إلى وصف المكان بميزاته و الطابع الغالب عليه، وتكون هذه التسمية مرتبطة أساسا إما مع جغرافيا المكان، و إما مع نوع النبات أو الحيوان الذي يكثر تواجده بذلك المكان، و إما مع أسماء تربط الشعوب بأراضيها من قبائل أو عائلات، أو حتى أسماء لأولياء صالحين انتقل اسمهم إلى ذلك المكان .

و أورد عطوي إبراهيم قول ألبرت دوزا الذي يرى أن المواقعية تمكنا من فهم الروح الشعبية، و ميولها سواء كان أسطوريا أم حقيقيا، و الوسائل التي تعبر بها، و يرى أن المواقعية نظام متعلق باللسانيات التي تعد علما للغة بصفة عامة، و بصفة أدق دراسة تاريخية و مقارنة للغات، لأن تسمية الأماكن عبارة عن بحث و وصف و شرح للألفاظ التي ساعدت و ما زالت تساعد على تعيين جوانب الطبيعة في علاقاتها مع الكيان الإنساني³.

2- الأصناف الرئيسة للطوبونيميا:

في الدراسة المواقعية تصنف أسماء الأماكن إلى عدة أصناف منها⁴: الهيدرونييم (Hydronyme): أسماء الأماكن التي لها علاقة بالماء مثل: عين، بئر، واد، منبع، نهر، حمام، ...

¹ - المرجع نفسه

² - هدية سارة: مواقف منطقية تلمسان - ص 04

³ - المرجع نفسه - ص: 04، ص: 05

⁴ العلوم الإنسانية (المجلد الثاني عشر) > www.arab-ency.com

أورونيم (Oronyme): أسماء الأماكن التي لها علاقة بالتضاريس مثل جبل، هضبة، تل...

الأجيوتوبونيم (Hagiotoponyme): ويخص أسماء الأماكن التي لها علاقة بالأولياء الصالحين و القديسين.

الأودونيم (Odonyme): أسماء الطرقات و الشوارع و الدروب.

المواقعية الجزئية (La Microtoponymie): أسماء الأماكن التي لها علاقة بالنبات والحيوان.

3- العلوم التي تعتمد الدراسة المواقعية:

تعتبر بعض التخصصات من العلوم المكملة لعلم المواقعية، و التي نستفيد منها في معرفة بعض الحقائق التاريخية والجغرافية و اللغوية لأسماء الأماكن، بل لا تدرس المواقعية إلا بحضور أنظمة ثلاث و لا يمكن فصلها عنها حيث يؤدي اسم المكان الجسر بين اللسانيات و التاريخ و الجغرافيا، نوردها بإيجاز على النحو التالي ¹:

3- 1 علم التاريخ: إن اسم المكان هو شاهد على الماضي يعطينا تاريخ ذلك المكان و علاقته بمن عاشوا فيه و هيئته و منحوه اسما، و للمواقعية علاقة بهجرة الشعوب و غزو الأقاليم والاستعمار والاستقلال و تنقل السكان و فترات التعمير و تعاقب الحضارات، و كل هذه المظاهر لها أثرها البالغ في تسميات الأماكن بلغات محلية أو أجنبية، و في كيفية تحديد أصلها و انتمائها.

3- 2 علم الجغرافيا: قد تتعلق أسماء الأماكن إما بطبيعة الأرض و تضاريسها أو بطبيعة المناخ، كما أن أسماء الأماكن الخاصة بالجغرافيا كأسماء الوديان الجبال والهضاب ... تبقى ثابتة، و مطابقة لطبيعة المكان.

3- 3 علم اللسانيات: تعتبر اللسانيات العلم الأساسي الذي تعتمد عليه المواقعية، فتدرس أسماء الأماكن، بحكم أنها مفردات لها دلالة معينة، على المستوى المعجمي بالدرجة الأولى، ثم على المستوى الصوتي و الصرفي.

كما أن لعلم الإيثيمولوجيا (دراسة أصل الكلمات و تطورها) حظا وافرا في الدراسة المواقعية، فهذا العلم يسمح لنا بالرجوع إلى الكتابات القديمة و معرفة

⁶ - ينظر فاطمة الزهراء نجراوي: أسماء القرى في منطقة تلمسان (دراسة مواقعية) - مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم اللهجات - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان - كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية - قسم الثقافة الشعبية - 2009م - ص 5، 6، 7

اشتقاق بعض الكلمات، خاصة فيما يتعلق بجذر أو أصل بعض المفردات كالتى في اللغة البربرية، وهناك علوم أخرى بلا شك يعتمد عليها علم المواقعية كعلم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا.

لقد أصبحت الطوبونيميا لدى كثير من الشعوب التى تبحث عن ذاكرتها الجماعية والتاريخية مصدرا غنيا، لكونه يعتمد على مجموعة من العلوم السابقة الذكر.

ثانيا : نشأة مدينة تلمسان وتطورها التاريخي :

إن لمدينة تلمسان ماضيا تاريخيا هاما اكتسبته من موقعها الجغرافي الممتاز، و من كونها كانت عاصمة للمغرب الأوسط أكثر من ثلاثة قرون، ازدهر خلالها الفكر، وأخصبت الحضارة و تطور العمران، و استهوت العديد من رجالات الفكر و السياسة و الثقافة، مما جعلها في الأخير مدينة الفن و الثقافة و التاريخ¹.

1- **الإطار الطبيعي :** إن مدينة تلمسان تقع في الإقليم الغربي من أرض الجزائر، الذي اصطفته الطبيعة لتبرز جمالها لمن يهاها و يقيم في حضنها، و تقتعد بسفح جبل يحفظها من الجنوب عروسا فوق منصة، أو ملكا على رأسه تاجه، يطل منها على سهول خضراء واسعة الأرجاء تحدها سلسلة من التلال القليلة الارتفاع لا تصد هواء البحر البليل عن الانتشار في ذلك الإقليم، فيخفف من وطأة الحرارة في الصيف، و يوجد عليه في الفصول الأخرى بسحوب ممطرة تروي الأرض فتفيض العيون و تتدفق الغدران و تكثر الأعشاب و تزدهر البساتين².

2- **الإطار التاريخي :** إن أهمية موقع مدينة تلمسان هي التي أملت على الرومان ضرورة الاستيلاء على (أقادير)، فجعلوها قلعة عسكرية تراقب حركات القبائل الزناتية الرافضة للوجود الروماني، لقد أضافوا لدورها الاقتصادي مركزا عسكريا، و مع الاستعمار الروماني ازدادت المنطقة أهمية باستغلال سهولها و أوديتها و تلالها فلاحيا حتى سميت ببستان الفواكه (pomaria=verger)³.

¹ - د. يحيى بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط - وزارة الثقافة - تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية - الجزائر-2007م- ص15

- محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة و حضارة الجزائر - المؤسسة الوطنية

² للكتاب- الجزائر- 1984م- ص07

³ - براهيم نصر الدين: تلمسان الذاكرة -ص48

و أوجز في ما يلي أهم التطورات التي عرفتھا تلمسان عبر تاريخھا الحافل¹ :

♦ **البربر:** بَنَوْا فيها أصل المدينة القديمة وهي (أغادير)، أي القلعة، وأطلقوا على البلدة كلها اسم (تلمسان) أي الينابيع.

♦ **الفاندال:** وقد مرَّوا بها خلال فترة الحكم الروماني للمدينة، ثم طردوا منها من جديد على يد الرومان الكاثوليك.

♦ **الرومان:** وقد حكموا المدينة من بداية الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي إلى عام 671م عند قدوم العرب المسلمين بقيادة عُقبة بن نافع، منذ عام 671م وحتى نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العباسي ظلت تابعة للأمويين والعباسيين.

♦ **بنو زناتة:** وقد حكموها منذ بدايات القرن الثامن الميلادي حتى نهاياته تقريباً.. حينما انشقَّوا عن العباسيين مع حركة انشقاق الخوارج في المشرق... وذلك بقيادة زعيمهم « أبو قرّة » من « بني يفرن » وهي فخذ من قبائل زناتة المغربية.

♦ **الأدارسة:** قدموا من فاس بالمغرب، وفتحوا تلمسان بالمصالحة مع زعيم قبائل زناتة، وظلوا يحكمون تلمسان طيلة القرن التاسع الميلادي

♦ **المرابطون:** وهم قبائل من كدالة جنوب موريتانيا أسَّسوا عاصمتهم مراکش حاصروا المدينة عام 1079م بزعامة « يوسف بن تاشفين » وفتحوها وبَنَوْا فيها ضاحية (تاغرارت)

♦ **الموحِّدون:** عبد المؤمن بن علي الكومي فتح تلمسان فحاصرها عام 1145م، وانهزم المرابطون، وفتحت المدينة لهم، ودام حكمهم لها 40 سنة.

♦ **بنو عبد الواد:** استخدمهم الموحِّدون للحفاظ على تلمسان، إلا أن شوكتهم قد قويت فيها، وعلا شأنهم حينما استطاعوا أن يصدَّوا قبائل (بني غانية الطامعة في تلمسان)، فما كان من الخليفة الموحِّدي بالمغرب إلا أن كافأ زعيمهم بتعيينه حاكماً له، واستمر حكم بني عبد الواد لتلمسان ثلاثة قرون، ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي إلى نهايات القرن الخامس عشر تحت وصاية المغرب الأقصى.

♦ **المرينيون:** القادمون من المغرب الأقصى وقد حاصروا تلمسان سبع سنوات ابتداء من عام 1299هـ بقيادة زعيمهم السلطان المريني « أبو يعقوب » ولم يرفع الحصار عن المدينة إلا بموته، إلا أن المرينيين قد بَنَوْا خارج أسوار المدينة القديمة مدينةً جديدة

⁴ ينظر د. يحيى بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط - ص 16 / ص 27، و ينظر براهيم نصر الدين:

المرجع السابق - ص 48 / ص 64.

أطلقوا عليها اسم « المنصورة ». وقد عاد المرينيون مرة ثانية لحصار تلمسان بقيادة أبي الحسن المريني ففتحوها ودام حكمهم لها إحدى عشرة سنة.

♦ **العثمانيون**: وقد خضعت تلمسان للعثمانيين منذ عام 1555م بعد أن كان قد فتحها القائد العثماني « بابا عروج » الذي استتصر به « أبو زيان » من بني عبد الواد على عمه « أبو حمد الثالث » الذي انتزع منه الحكم.

♦ **الاحتلال الفرنسي**: لم يَدُم حكم الأمير عبد القادر طويلاً لتلمسان، إذ إن الفرنسيين سرعان ما عادوا فاحتلوا المدينة من جديد وبَنَوْا بها مركزاً عسكرياً في حي « المشوار »، واستمرت سيطرتهم عليها إلى عام 1962م حين استقلت الجزائر.

ثالثاً: تأصيل أسماء أماكن تلمسان ودورها في إبراز الهوية التاريخية:

تتضح الهوية التاريخية للمدينة في نظرنا بدءاً بأسماء أماكنها، التي تحمل في مجملها تسميات عربية و بربرية صرفة و أخرى فرنسية، مرتبطة بالإنسان الذي استوطن هذه الأرض عبر مراحل و حقبات تاريخية عديدة، ظهرت نتيجة لأوضاع تاريخية و ثقافية و سياسية سادت بها، وقدمت لنا معطيات عن تاريخ المنطقة وأمجادها وعن نوعية ثقافته.

1- الأسماء اللاتينية:

• بومارية *Pomaria*:

اتخذت مدينة تلمسان أسماء متعددة منذ نشأتها، و عبر مراحل تاريخها القديم والوسيط، لأن تلمسان تعتبر من أقدم مدن المغرب الأوسط، فقد عرفت الاستقرار البشري منذ آلاف السنين، و يتضح ذلك من خلال الحفريات و الأبحاث، التي أجريت عليها من قبل بعض الباحثين الغربيين على وجه الخصوص، الذين عثروا على بقايا أثرية، تعود إلى العصور الحجرية ، أو فجر الحضارة الأولى لإنسان هذه المنطقة¹.

لم تكن تلمسان في عصر استيلاء الدولة الرومانية على الشمال الإفريقي، أي ابتداء من القرن الثالث للميلاد إلا مركزاً حريباً يحمل اسم "بوماريا"، و لا نعرف تاريخ المركز بالضبط، لأن الرومان لم يتركوا به آثاراً ذات أهمية يعول عليها المؤرخون و الباحثون².

¹ - د.عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية- موقف للنشر والتوزيع- الجزائر- 2002م- ج1- ص88

¹ - الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1995م- ص 51

طالما بحثنا عن اسم المدينة في العصور القديمة فلم تفدنا به كتب التاريخ، إذ لم يصلنا إلا اسمها الروماني و هو "بومارية"، إلا أن هذا الاسم لا يعني أن المدينة تأسس روماني، فلا شك أنها أقدم من وجود الرومان في تلك الناحية من البلاد، و لا شك أنها كانت تحمل اسما بربريا آخر، لأن موقعها الطبيعي الجميل الجغرافي الاستراتيجي الفريد من شأنه أن يجعل منها أرض استقرار أهلة، فلا يمكن إذن أن تبقى بدون اسم، و لعل اسم (بوماريا) ما هو إلا ترجمة للإسم البربري القديم¹.

2- أسماء الأماكن البربرية والعربية:

انطلاقا من تحليل مدقق للمواقعية البربرية و العربية لتلمسان أمكني أن أجمع بعضا منها على أن حصرها جميعا يتطلب وقتا و جهدا كبيرين، و هو مسؤولية مشتركة بين الباحثين في العلوم الاجتماعية و الإنسانية.

إن الطوبونيمات البربرية بالجزائر عددها كثير، بحكم أن البربر هم السكان الأصليون، فيسهل تحديدها في الدراسة الواقعية، غير أن بعضها يصعب تحديده، كالأسماء التي تكون ذات أصل ليبي قديم².

و قد ارتبطت أسماء الأماكن عند البربر بالتضاريس والأرض و الماء، لأن البربر كانوا يسكنون في الأماكن صعبة المسلك، كالجبال و الهضاب، اتخذوها كملجئ أو مخبئ لهم من الهجمات المتتالية للغازين، و تعد الطوبونيمات العربية أكثرها تعددا و غنى و تنوعا فبمجيئ العرب المسلمين تبدلت الطوبونيمات الجزائرية كليا في المناطق المأهولة بالعرب و غير العرب، فاستبدلت الأسماء الجغرافية البربرية بالعربية، مثل جبل، عين، واد، دار، قصر ...، كما أصبحت ظاهرة تقديس الأولياء و زيارة الأضرحة منتشرة في كامل التراب الوطني، و بذلك أعطى العرب الاسماء للأماكن لفرض لغتهم و دينهم و شخصيتهم و انتمائهم و علمهم بالوسط الذي يعيشون فيه.³

• الأماكن الحضرية العربية:

تزخر مدينة تلمسان بآثار تاريخية هائلة ما تزال حتى اليوم تحكي عن عظمة هذه المدينة الفكرية و الحضارية و العمرانية، على أن أهم آثار تلمسان بروزا هي خرائب "المنصورة"، التي أسسها السلطان يوسف بن يعقوب كمعسكر لقواته التي فرضت الحصار على مدينة تلمسان أكثر من ثماني سنوات .

² - محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور - ص 08

² - فاطمة نجراني: أسماء القرى في منطقة تلمسان - ص 8

³ - ينظر المرجع نفسه - الصفحة 8، 9

لقد كان السلطان المريني السابق شديد الطمع في السيطرة على تلمسان وأقاليمها، و ذلك بسبب الخصومة الشديدة التي كانت بين العرش المريني و العرش الزياني، و لكي يحقق يوسف المريني أطماعه أبرم صلحا مع بعض ملوك النصارى بالأندلس، و مع أمراء بني الأحمر بغرناطة، و تنازل لهم عن بعض الثغور الأندلسية التي كان يسيطر عليها هناك، ثم التفت إلى منازل تلمسان الزيانية، و شن عليها و على الإقليم كله أربع غارات و حروب في سنوات (689هـ_1290م) و (695هـ_1296م) و (696هـ_1297م) و (697هـ_1298م)، و أحدث بها تخريبا في العمران و المزارع، و إتلاف في المحصولات و الحيوانات، و لكنه لم يستطع أن يتوصل إلى بغيته في احتلال تلمسان¹.

و نتيجة لصمود تلمسان و تصديها للمقاومة و الاستبسال، فكر يوسف بن يعقوب المريني في فرض حصار طويل عليها حتى ترضخ و تستسلم، و لكي يسهل هذا الحصار و يأتي بنتيجة فكر في إنشاء معسكر كبير لقواته تستقر به خلال الحصار، و تجد كل ما تحتاجه من المؤونة، و لا تضطر إلى العودة إلى المغرب، و في شعبان عام 698هـ_1299م أرسل السلطان المريني يوسف جيشا جرارا ضد تلمسان، عسكر بالقرب منها و شدد عليها الحصار، و شرع في نفس الوقت في بناء مدينة سماها " المنصورة" تيمنا بتحقيق الانتصار، و لكن لم يحقق ذلك ، و أصبح اسم المنصورة أولى و أجدر بها.²



شكل رقم(01)

و يرجع علماء الآثار أن الأطلال الحالية-شكل رقم(01) هي بقايا المدينة التي أسسها أبو الحسن، رابع ملوك المرينيين بمدينة فاس، أما المنصورة القديمة التي أسسها يوسف بن يعقوب فقد خربها بنو عبد الواد إثر انسحاب بني مرين من تلمسان و المغرب الأوسط سنة 706هـ - 1307م، و لا شك في أن المدينة تعرضت في هذه المرة أيضا إلى تخريب من قبل الأيدي، ثم أتمت الطبيعة عمل الإنسان³.

⁵ - ينظر د. يحيى بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط - ص 39، ص 40

¹ - المرجع نفسه - ص 40

هذه هي قصة إنشاء "المنصورة" التي لم يبق منها إلا الخرائب، تحكي للتاريخ أمجادها وبطولات أجيالها وأصالة حضارتها الفنية والفكرية والتاريخية والحضارية.

• أسماء الأماكن التي لها علاقة بالأولياء الصالحين

تأخذ فكرة القداسة أشكالاً وأنواعاً مختلفة حسب العصور والأمصار، فلا يوجد شعب من الشعوب لا يربط أصل المدينة بشخص مقدس¹، و تلمسان تزخر بالعديد من الأماكن التي يعود أصلها إلى اسم ولي صالح ولد فيها أو مهاجراً إليها ودفن بها.

وكلمة سيد هي اختصار لسيدي التي تعود إلى تقديس الرجال الذين تركوا بصماتهم عبر مختلف الأحقاب التاريخية، ولأصل تسمية "سيدي" في الجزائر وأصل الأضرحة تفسيرين أو تأويلين رئيسيين، "فالبعض يذهب إلى القول أن أصلها أندلسي، حيث أن آثار الإمبراطورية العربية في إسبانيا من جراء طرد العرب والتطورات المذهلة التي قام بها الإسبان والبرتغاليون، كانت سبباً في إيقاظ تعصب المسلمين، نتج عن ذلك ردود فعل ظهرت جلياً في إنشاء سلطة ذات طابع ديني واجتماعي في الغرب، أما التفسير الثاني فيرى بأن الأولياء ينحدرون من الصحراء الغربية ومما يثبت ذلك شهادة المعنيين أنفسهم الذين يؤكدون أن أصلهم من الساقية الحمراء التي كانت مركز إشعاع ثقافي للمغرب"².

• العباد:

في المنحدر الشمالي لقرية المفروش، نجد قرية (العباد) التابعة لمدينة تلمسان، الواقعة في الجنوب الشرقي من المدينة، وتشرف على واد الصفصيف وسهل المنية، ولم يدخل هذا المعلم التاريخ إلا في القرون الوسطى، ابتداء من كونه مدفناً ومكان التقاء العباد والزهاد لذا أعطى له هذا الاسم المشتق من (العبادة) جمع عابد.

² - ينظر هدية سارة: مواقف منطقة تلمسان - ص 120

³ - المرجع نفسه - ص 136

⁴ - المرجع نفسه: ص 137، ص 138



و من أشهر علماء تلمسان أبو مدين الغوث
الاشبيلي، دفن العباد بتلمسان سنة
(595هـ/1198م) (شكل رقم 02)، الذي أخذ التصوف
السني مباشرة عن عبد القادر الجيلاني أو
الكيلاني(ت 561هـ/1166م) في بغداد و المتأثر
بفكر الغزالي، درس بالأندلس و المغرب ثم انتقل
إلى المشرق، حيث عكف على الدراسة و لقاء
كبار التصوف في هذه الديار، و قد اتسم بالورع
والتقوى، إقامته بالعباد بتلمسان جعلت من هذه
المدينة قبلة للزائرين، الذين لا يدخرون جهدا في
سبيل زيارة ضريحه و التبرك به والدعاء عنده¹.

شكل رقم(02)

• لالة مغنية

و المرادف الأنثوي لسيدي هو لالة (maitraaaaisse) أو (madame)، و يرى المؤرخون
أن لالة كلمة بربرية تعني سيدة، و يصحب اسم (لالة) دائما اسم إمراة سالحة، و قد
برزت منهن بعض التلمسنيات الصالحات، تنتمين إلى بيوتات تلمسانية عريقة.

¹ - ينظر د.عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني - ج2- ص384، ص 385



شكل رقم (03)

لالة مغنية أي السيدة المغتنية، اسم ولية صالحة و امرأة طاهرة و شديدة الورع، عاشت في بداية القرن التاسع عشر، كانت تستقر في القبة الواقعة شرق المعسكر الروماني بمنطقتها، أظهرت منذ طفولتها كفاءة غير عادية في البحث و العلوم، و استطاعت سريعا أن تتعمق في العلوم الإنسانية، كما فتحت مدرسة يقصدها العرب و البربر لسماع دروسها، و استحققت بسمعتها الجيدة التي اكتسبتها في وقت قصير أن يحنى أمامها كل علماء البلد و أن يصرحوا بأنها وليتهم، و دفنت في المكان حيث القبة المعروفة باسمها اليوم (شكل رقم 03)، و منحت اسمها للمنطقة التي كانت تعيش فيها، بعد أن صارت مركزا إسلاميا¹.

3-3. الأسماء الفرنسية بتلمسان:

إن الفترة التاريخية الممتدة 1830 إلى 1954 تعتبر فترة تعسة بالنسبة للجزائر التي كان يحاول الاستعمار أن يخنقها، لدليل قول أحدهم: إننا لا نحتل مملكة الجزائر فقط، بل نجعلها مستعمرة و نوجه إلى هذا البلد الجديد فائض سكاننا و ننشر فيه النشاط الفرنسي².

إن تسمية الأماكن والأشخاص كانت بمثابة الخطوة الأولى للاستعمار من أجل محو الهوية الجزائرية، و معلوم أن أي تحريف قد يلحق هذه الأعلام سواء أكان

¹ - ينظر هدية سارة: المرجع السابق- ص 143، ص144

² - معلومات عن الجزائر- مصلحة الوثائق العامة- المطبعة المركزية المسيرة- عنابة- الجزائر- ط1- ص 46.

مقصودا أم غير مقصود ، فإنه لاشك يؤثر ليس على كينونة المجموعة البشرية فحسب بل ومستقبلها برمتها ، مما سيؤدي بالمعالم الثقافية للمجموعة المستهدفة أن تندثر مع اندثار مضمون الأعلام الجغرافية.

وعند قدوم الفرنسيين إلى الجزائر وجدوا واقعية قديمة جدا ذات حضارة عريقة ، كان الإسلام بها راسخا ، "فعمل المستدمر الفرنسي طوال وجوده على تدمير الثقافة القومية بالبلاد بواسطة النفس الطويل المخطط له سلفا ومن قبل أكبر العقول الإستراتيجية التي كانت تفكر للاستعمار الفرنسي بالجزائر، و ذلك بإفراغ الشخصية الجزائرية من مضامينها الوطنية و القومية ، و إحلال مقومات الشخصية الفرنسية في الفراغ الثقافي الذي يوجدونه في الذات الجزائرية"¹.

فلم يخف على المستعمر الفرنسي الأهمية الكبيرة التي تكتسبها دلالات أسماء الأماكن و الأشخاص في شحن القومية الوطنية و بلورة الهوية الثقافية للشعب الجزائري ، فهي بما تحمل من دلالات تؤدي دورا نوعيا في التعبير عن القيم الاجتماعية و المقدسات الدينية للشخصية الجزائرية ، لذلك قام بحملة تشويهية واسعة على معالم الهوية الأنوماستيكية الجزائرية (onomastique = دراسة أسماء الأعلام) ، بدءا بتغييره أسماء مواقع بأخرى تتناسب مع مرجعياته الدلالية الخاصة ، حيث شن حربا على كل ما له صلة بالتراث الوطني².

لقد شرفت فرنسا أبطالها العسكريين من خلال التسمية ، كما كرمت علماءها و فنانيها ، ففرنست المحيط بمنحه أسماء جنرالاتها و رجالاتها ، و الهدف كان تجريد الفضاء الجزائري من أسس هويته الثقافية ، و غطت الواقعية الفرنسية خصوصا المناطق الغنية بأراضيها الزراعية أو ميناءاتها أو مكتسبات أخرى.

¹ - هدية سارة: المرجع السابق - ص 150

² - المرجع نفسه - ص 150 ، ص 151

• Negrier (نـيـفـري)



شكل رقم (04)

جاء قرار تأسيس قرية نـيـفـري في الحادي عشر من يناير عام تسعة وأربعين و ثمانمائة و ألف (1849)، قرب الطريق المؤدي إلى وهران، بهدف الشروع في تأسيس أربعين (40) منزلا و سميت القرية نسبة إلى الجنرال Negrier (شكل رقم 04) الذي كانت له شعبية كبيرة في منطقة تلمسان، قتل في باريس عام ثمانية وأربعين و ثمانمائة و ألف (1848)، وما نلحظه في هذه القرية اهتمام الفرنسيين بها كان منصبا على زراعة الاشجار، وذلك لغزارة مياهها.¹

• Lamoricière (لاموريسيير)



شكل رقم (05)

من بين الأضرار التي سببتها الإدارة الفرنسية، هو فتح طريق للقطار يشق منطقة أثرية نصفين من الشرق إلى الغرب، و تربعت محطة القطار في قلب الآثار مما أتلّف كثيرا منها، كما تسبب إنشاء الطريق من و إلى أولاد ميمون في إزالة أجزاء من آثار (ألتافا)، و اتخذ الجيش الفرنسي في الفترة (1962/1954) موقعا له داخل هذه المنطقة الأثرية ، مارس فيها نشاطه العسكري، ولمحو اسم القبيلة الذي كان يرمز لأصحابها تاريخ أجدادهم، و تراثا حقيقيا ورثوه عنهم، اختارت اسم أحد جنرالاتها لاموريسيير Lamoricière

اسما لها (شكل رقم 05) و الذي بقي لمدة طويلة على رأس التقسيم الإداري لوهران²

¹ - نفسه - ص 160

² - نفسه - ص 153، ص 154

وبهذا تكون فرنسا قد أكدت حضورها و غزوها للمكان، بمحاولتها القضاء على الموروث الثقافي الجزائري و أبرز شخصياتها و بصم ثقافتها، و على الرغم من إعادة بناء الواقعية الفرنسية بعد الاستقلال، فقد حافظت بعض الأسماء على الاسم الفرنسي مثل " نفري " التي استبدلت بـ"شتوان" و بقي الاسم المتداول بين السكان إلى الآن هو " نفري ".

خاتمة:

تعتبر أهمية الإحاطة بدلالات أسماء الأماكن من أهم معالم الهوية الوطنية، ومن عناصر سبر أغوار التاريخ والبحث عن الحلقات المفقودة في مساره الحافل، والتي تشكل مساحات بيضاء ما زالت في حاجة إلى مزيد من الدراسة.

و أهم النتائج التي خلص إليها هذا البحث ما يلي:

✓ لقد خلدت كل حضارة ثقافتها و أبرزت معالمها، و هذا يتضح في اسم المكان الذي منحه لكل منطقة أقامت فيها.

✓ إن الأسماء التي كانت تعطى من طرف الإنسان إلى الوسط الطبيعي الذي كان يعيش فيه لم تكن عن طريق الصدفة، وإنما كانت تأتي نتيجة لحدث بارز كان له وقع كبير في نفسية الجماعة البشرية، أو تخليدا لشخصية من الصلحاء أو العلماء في فترة زمنية معينة.

✓ إن الاستعمار أثر على الشعوب والبلدان التي خضعت لسيطرته بإشكال مختلفة، و ذلك باختلاف الدول الاستعمارية، و قد اهتمت فرنسا في مجال سيطرتها الاستعمارية بالجوانب الثقافية، ولم تركز على الجوانب الاقتصادية إلا بقدر ما يخدم سياستها الاستعمارية، و ذلك بإحلال ثقافتها محل ثقافة البلد المحتل، والعمل على القضاء بشكل كامل على ثقافته وطمس هويته الحضارية، و كان تغيير أسماء الأماكن منفذا لذلك.

رغم أن علم الواقعية لا يزال في بداية التأسيس، و أنه لم يلق اهتمام الباحثين فإنه يبقى مهم لدى كل المجتمعات والشعوب التي تبحث عن ذاتها، باعتباره عنصرا من العناصر المساعدة على استعادة ذاكرتها الجماعية وإعادة تركيب مكونات هويتها الثقافية.

قائمة المصادر والمراجع:

- ♦ أمل أحمد الحسيني: الأسماء الدخيلة على اللغة العربية- المؤتمر العربي الرابع للأسماء الجغرافية في بيروت- لبنان- 22/16 حزيران 2008م.
- ♦ الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1995م.
- ♦ براهيم نصر الدين: تلمسان الذاكرة- منشورات ثالة- الأبيار- الجزائر- ط2- 2010
- ♦ عبد العزيز فيلاللي: تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية- موقف للنشر والتوزيع- الجزائر- 2002م- ج1.
- ♦ عبد العزيز فيلاللي: تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية عمرانية اجتماعية ثقافية- موقف للنشر والتوزيع- الجزائر- 2002م- ج2.
- ♦ فاطمة الزهراء نجاوي: أسماء القرى في منطقة تلمسان (دراسة واقعية)- مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم اللهجات- جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان- كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية- قسم الثقافة الشعبية- 2009م.
- ♦ محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة و حضارة الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1984م.
- ♦ معلومات عن الجزائر- مصلحة الوثائق العامة- المطبعة المركزية المسيرة- عنابة- الجزائر- ط1.
- ♦ هدية سارة: واقعية منطقة تلمسان، دراسة لنماذج من بلدياتها- مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم اللهجات- جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان- كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية- قسم الثقافة الشعبية- 2008/2007 .
- ♦ يحيى بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط - وزارة الثقافة - تظاهرة الجزائر عاصمة الثقافة العربية- الجزائر- 2007م- ط1 .

مواقع أنترنت:

العلوم الإنسانية (المجلد الثاني عشر) www.arab-ency.com